تربية الذوق

خطاب القيته ليلة ١٨ شهر ساحبة فتاة الشرق الفته في حفلة جمعية غرف القراءة في بحمدون في آخر الشهر الماضي

طلب الي ان احدثكم الليلة بما يا تزل منزلة الخطابة فاجبت الطلب على اعتراني بقصر الباع وقلة البضاعة وقدمت الى بحمدون هذه القرية الجميلة مساء امس والثقة تملأ فؤادي بانني سأجد لضعفي شفيعاً لديكم ومن كان شفيعه امثال حضراتكم فلا يخشى الانتقاد

جئت امس الى بحمدون وما ان استقرّ مقامي فيها حتى شعرت بلطف هوائها وطيب مناخها فخفق فؤادي شكراً لرجال هذه الجمعية الافاضل الذين كانوا السبب في تمتعي بذلك السرور ووقفت حيناً امتع طرفي بجمال الطبيعة وبهائها فابصرت مشهداً لا يمكن ان تقع العيون على اجمل منه رأيت غيوماً تلبد بعضها فوق بعض كأنها جبال تمتد من جهة المغيب حتى جبل صنين وهي بين لطف وكثافة يتمثل فيها رسوم واضحة كأنها اشجار تعانق اغصانها في غفلة من عيون البحر المراقبة او غادة يبدو وشاحها الابيض من خلال حلقات شعرها الحالك السواد ومن ورائها ذكاء تختال بحلتها الارجوانية كشعلة نار ترسل من لحاظها سهاماً تخترق تلك الجبال البخارية وتطبع على وجناتها قبلاً حارة فتعيرها من الورد احمراراً ومن البنفسج استحياء وانقباضاً

كل ذلك والنسيم يهب عليها مداعباً فيحبث بطيات ثوبها الرمادي ويكشف الستر عن هامتها فيبدو رأسها متوجاً بالشمة ذهبية يخطف بهاؤها الابصار ويحير جمالها الافكار وكأن في يديها صولجاناً من نور او سيفاً من نار تحركهُ باشارة من مليكة الطبيعة فيترك بمروره خطوطاً ساطعة ترتسم باشكال هندسية ثم تضمحل وتتلاشى طي تموجات النور

فلبثت اعاينها وهي تسير ببطء نحو الشرق ومن تحتها الجبال مشرقة الوجه باسمة الثغر وقد ساد السكون على البسيطة فلم ارَ غصناً يميل او نباتاً يتحرك بل لم يكن هنا عصفور يغرّد او ماء ينساب كأنما كلها في الطبيعة شاعر بجمال المشهد وجلاله فقطع انفاسه وجمد في مكانه هيبة وخشوعاً

على اني رأيت افراداً وجماعاً من الناس كباراً وصغاراً صبياناً وبنات يسيرون في الطرق والحقول وهم بين محدثٍ ومصغٍ عابس وضاحك مسرع ومتمهل . وكل منهم متصرف بافكاره الى وجهة جعلها قبلته

ولكني اسمحوا لي ان اقول لكم : انه لم يكن بينهم من اكترث لجمال الطبيعة او ارسل نظرة اهتمام الى ما هو جارٍ فوقه من بدائع المشهودات . اجل لم اذ اماً تستلفت افكار ولدها الى اعمال امه الطبيعة ولا رأيت والداً يظهر لابنته عظمة الكون وغرابة نظامه بل لم ارَ غادة حدقت في العلاء او شاباً أخذ بجمال تلك المشاهد الغراء كما اني لم ابصر صغيراً يشير ببنانه المترفة الى تلك الرسوم المنقوشة بابهى الالوان ولم ارَ شيخاً يرسل رائد الفكر في مجاهل الفضاء مسبحاً بارىء الاكوان

اجل ايها السادة لم يكن فيمن رأيتهم من مال بوجهه نحو تلك المشاهد التي خطتها يد الطبيعة بابدع الاشكال فجلت من تلك الغيوم المتراكمة شبه انهار تجري من تحت قناطر سنجابية تعلوها هضاب وآكام ويحيط بها صخور وحصى ورمال ومن ورائها زرقة السحاب تجسم الرسوم بما فيها من خلايا وسدود وتحولت بحيث تبدو للنظر على اتم وضوح وابدع مثال

وكأني بالشمس حزنت لما صادفت بين ابنائها من قلة الاحتفاء بشأنها وعدم الاكتراث لاعمالها فاكفهر محياها اسفاً وبردت اطرافها تأثراً وانفعالاً ثم مالت

ان خفق فؤادها بزفرة حارة واغمضت اجفانها فغابت وسل انظارها ومالت برأسها فوق كتف البحر فغيبت وجهها بين طيات امواجه الهادئة

وعندئذ تهتني يد الظلام الباردة التي كانت تمتد نحو صفحات الوجود فتطمس رسومها وتمحي ايات جمالها فوقفت متسائلة عن معنى هذا الجمود واسباب الاضمحلال هل يمكن تاويله لقلة جمال المشاهد الطبيعة ؟ والطبيعة اجمل ما في الوجود .. او لعجز الانسان عن ادراك اسرارها وهو العاقل الحكيم والمخترع العظيم ؟ لعمري لا هذا ولا ذاك ولكننا نحن الشرقيون على اختلاف طبقاتنا لم نتعود الالتفات الى الاشياء الجميلة ولا توفرت لنا الوسائط الفعالة لتربية الذوق وانماء حاسة تقدير الامور العظيمة

عفواً سادتي انني لا اقصد بذلك لوماً او عتاباً بل حاشا لي ان انسب لابناء جنسي وبناتي ضعفاً وعيباً وهم سلالة اقوام اشتهروا من قديم الدهر بالمدنية والارتقاء ولن يزالوا على قلة وسائط التقدم وحداثة عهدهم به يعدون من اكثر الشعوب ذكاء واسماهم اخلاقاً

ولكن هي الدنيا لحياتها ادوار واطوار لا بدَّ ان تمر بالشعوب فتجعلها كالافراد تارة طفلة بلهاء وطوراً صبية حمقاء وحيناً كهلة حكيمة واخر شيخة خبيرة

ونحن في طور الحداثة ان لم اقل دور القطام بل نحن في دور النقاهة من مرض لا ذنب لنا في تشيبه وانما هو ذنب الايام

فقد وجدنا في فصل خريف تناثرت اوراق العلم عن اغصانه وتلبَّد جوُّه بغيوم التأخر فرأينا ذواتنا على حضيض من الاوهام والسخافات لا اساس علم فيه نشيد عليه ولا مثال نسج على منواله

فكان علينا ان نضع الاساس وان نسج المثال ولقد فعلنا وبالفعل بعض